دور فلاسفة الإسلام في بعث النهضة الأوربية

أ . د / آمنة نصير (*)

تمهيد :

حالة أوربا قبل الفتح الإسلامي للأندلس :

يقتضـــينا البحث أن نلمس حياة أوربا قبل أن يصل إليها نور الأندلس بحضارته ، فقد شاع التخلف ، وانتشر الجهل في تلك العصور ، فمنذ سقوط الدولـــة الرومانية الغربية في أواخر القرن الخامس للميلاد، غطت أوربا في نـــوم عمـــيق، دام بضعة قرون من الزمان ، قيل أنها وصلت إلى ألف عام ، كـــان نصفها الأول في عصر الآباء منذ القرن الخامس حتى العاشر ، وكان نصـــفها الـــثانى فـــى عصـــر المدرسيين ، حاولت فيه أوربا أن تبدد الظلام وتنفض عن نفسها مظاهر التخلف الذي استولى عليها في هذه الحقبة الطويلة ، وجاهر مؤرخو الفكر بأن أوربا حتى في العصر المدرسى خاصة فيما بين عامـــي ١٠٠٠، ١٣٠٠ كانت بيئة غير صالحة لنشأة العلم وظهرت فيها كل مقومات ومظاهر الهمجية والقسوة، وفشت فيها الأمية ، وقلت المدارس وعز الحصـــول علـــى الكتـــب، وانتشـــرت الفوضى في الجامعات ، وشاع فساد الأخـــلاق، وقامت فيها الحروب والأعمال الوحشية ،حتى الكتاب المقدس كان لا يكـــاد يوجد خارج الأديرة ، والقيام بنسخه اقتضى عاما ، ولذلك كان ثمنه باهظـــا، لا يقـــوى على اقتنائه إلا القلة النادرة حتى رجال الدين، قل من كان يســـتطيع أن يحرز نسخة كاملة . ويعبر رينود Reinoud فى كتابة " تاريخ

(*) عميدة كلية الدراسات الإسلامية - جامعة الأزهر

غزوات العرب " عن حال أوربا بأنها : " افترستها الفوضى وطحنتها المحن" فهى غائصة في فتن كقطع الليل المظلم " .

ويواصل حديثة فيقول : " كانت حياة الناس تعسة وشاقة وكئيبة تموج دنـــياهم بالمــنكرات والســيئات وهم عليها مقيمون وبها يتعاملون ، بل لعلهم غـــدوا بذلــك يــتفاخرون ويتنافسون ، وأضحى هذا الحال عاماً، وعلى كل مستوى وإطار ".

وتجســـدت هــذه الصورة في الهبوط الإنساني العام في جنبات الحياة المخـــتلفة، وكـــان ملموسا في غاراتها على الشرق خلال قرنين من الحروب الصليبية أو مثيلاتها في الغرب الإسلامي وبدت ظواهر هذا الهبوط فى الفكر والـــثقافة والخلق وأسلوب التعامل والالتزام بالقيم والعهود ، ويعبر صاحب " حضـــارة العـــرب " "لوبون " عن ذلك فيقول : " ودامت همجية أوربا البالغة زمـــنا طويلا من غير أن تشعر بها ، ولم يبد فى أوربا بعض الميل إلى العلم إلا في القرن الحادي عشر ، وفي القرن الثاني عشر من الميلاد.

ويؤكـــد على هذا المعنى المؤرخ الأوربي " لين بول " فيصف أوربا ويقارنهـــا بحضارة الأندلس الإسلامية فيقول " تظهر المقابلة جلية غريبة بين حضـــارة الأندلـــس وغيرها من المدن إذا ذكرنا أن أوربا كلها في هذا العهد كانت غارقة في حماة من الجهل وخشونة الأخلاق " .

ويصـــرح كذلـــك بأن " قرطبة العظيمة التى كانت أعجوبة العصور الوســـطى والـــتى حملت في الغرب الثقافة والمدنية مؤتلقة وهاجة ، وقت أن كانت أوربا غارقة فى الجهالة البربرية ، فريسة للشقاق والحروب.

هـذه هـي الصـورة لأوربا التي نقلها لنا المؤرخون الغربيون قبل اتصـالها بحضـارة الأندلـس التى فتحها المسلمون في أوائل القرن الثامن المـيلادي، وقضـوا فيها نحو سبعة قرون أقاموا حضارة عظيمة لا تقل عن حضـارة المشـرق الإسلامي آنذاك، واتصلوا بالمسيحيين اتصالا وثيقا، أسلم مـنهم مـن أسلم، وبقى آخرون على دينهم فى تعايش سلمى، برغم الحروب والمنافسـات الـتى وقعت بين خلفاء المسلمين وملوك قشتالة، وكانت طليطلة أول مدينة أندلسية سقطت في أيدي الفونس السادس ملك قشتالة عام ١٠٨٥م، وهـى دون نزاع كانت أكبر مركز انتقلت منه الثقافة الإسلامية إلى الغرب، فقـد أمهـا طلاب العلم من مختلف مدن أوربا، وكانوا بعد أن يتموا دراستهم يعـودون إلـى أوطانهم لينشروا العلم فيها، فكانت الأندلس مشعل النور في أوربا أمدتها بالعلم والثقافة الإسلامية ، وقضت في ذلك نحو ثلاثة قرون .

هـذه هى الحقيقة التى نقلها المؤرخون الغربيون أنفسهم في وصفهم لأوربـا قبل وجود الأندلس المسلمة ، حينما أضاء العرب نور العلم والمعرفة وقـبل أن نخـوض فـى منافذ المعرفة ووسائلها لأوربا نتناول مسالة هامة وحـيوية حول استفادة الحضارات من بعضها البعض ـ والرد على أصحاب الدعـاوى العنصـرية ، ومقولة حصر الفلسفة أو العلم عند جنس بعينه حتى نصـل إلـى النتيجة الهامة " إن العلم لا وطن له "، ومن منطلق هذه الحقيقة استفادت النهضة الأوربية بعلوم العرب .

الرد على دعاوى العنصرية :

لقـد شاعت مقولة التفريق بين الأجناس ، وتفوق جنس على جنس ، أو وصـف جنس بقدرة الابتكار في مجال التعالي على الجنس الآخر ، وقد

أفـــرد لهذه القضية الكثير من المؤلفات ، مما جعل لها ، رد فعل مضاد على عـــدم صـــدق هذا القول وأنها لا أساس لها من علم أو دراسة مؤسسة على قواعد يعتد بها .

وهـــذه النتيجة العلمية للدراسة في مجال " علم نفس الأجناس " أدت إلـــى الانطـــلاق إلى حقيقة هامة لها جذورها التاريخية ألا وهى : أن الأسرة البشـــرية مـــنذ أن وجـــدت وعرفت قواعد العلم والحضارة ، وهى تستعين ببعضـــها الـــبعض ، وببطلان دعوى أنه يمكن استخلاص صفات أى شعب ومميزاته الفكرية والعقلية من بيئته الجغرافية أو من الجنس الذى ينتمي إليه، وأصـــبحت دعوى التفلسف أنها من نصيب جنس دون الآخر دعوى ممقوتة ومرفوضة من جانب المنهج العلمي الصحيح .

ورغم هذه الحقيقة العلمية إلا أن هناك أصوات رفعت شعار التحزب الجنســـي الـــذى يؤكـــد تفوق الجنس الآري الأبيض على غيره من الأجناس وهكـــذا تمزقت العلاقات بين الحضارات الإنسانية بعضها والبعض الآخر ، اســـتقلت كـــل ثقافـــة عالمية عن غيرها من الثقافات وفي هذه الدعاوى نمت الأحقـــاد بيـــن الشـــعوب بعضها البعض، وتمزقت العلاقات بين الحضارات الإنســـانية بعضـــها الـــبعض ، وتمزقـــت المـــودة، وتهيأت الظروف لاستعمار الأقوياء للضعفاء .

وقـــد قـــاد هـــذه الحملة من التنكر لالتقاء الثقافات وأشعل نار الكراهـــية بين الشعوب والأجناس فريق من علماء الغرب والمؤسسات الثقافـــية الـــتى تتبعهم حيث راحوا يقللون من دور الحضارة العربية فى الأندلـــس وفاعليـــتها فـــى التأثـــير علـــى أوربا ويستخفون من بعض

المستشــرقين الذيــن أثبتوا التفوق للحضارة العربية ويصرون على أن الحضـــارة الأوربية لا تدين بالفعل لغير أجدادهم من اليونان والرومان ، لأن العرب " بطبيعتهم لم يخلقوا للتفكير الأصيل المبتكر.

وقـــاد حملـــة التعصـــب الديني والجنسي هذه في القرن التاسع عشر أمثال

" جليون تنمان Guilloume Tenmeam

و " فكتور كوزان " (١٨٤١ م) V.cousin

و "أرنست رنيان" (١٨٩٢) E.Renan

ممـــن كانـــت الفلســـفة العربـــية عندهم صورة مشوهة للفلسفة اليونانية .

أمـــا جمهـــرة الباحثين في القرن العشرين من أمثال " موريس ولـــف "Mouriss Wulf و" بيكا فيه " Picavet فقد لانت أحكامهم عن الفكـــر العربـــي الفلســـفي ، وأدخلـــوا في اعتبارهم ما انتهى إليه من عناصر أصلية مبتكرة من العبقرية العربية .

وقـــد ظهر بعد ذلك التحول في هذا العصر كتاب سلسلة التراث القديـــم والوسيط وفي مقدمتهم هذا الفريق الذين شاركوا في كتابة تراث الإســـلام "The legacy of Islam" حيـــث ربطوا في هذه السلسلة من دراساتهم بين تراث الماضي والحاضر.

وفـــي الـــربع الأول مـــن القـــرن العشرين، قامت في جامعة اكســـفورد حركة جيدة ترمى إلى تسجيل تراث الثقافات القديمة ، فبدأت بـــثقافة اليونان والرومان، وضمت إليها تراث الماضي والحاضر ، كما

ضـمت إلـيها تـراث القـرون الوسطى المسيحية ، وتراث اليهودية والإسـلامية ، ثم تابعت السير وأخرجت تراث الهند ومصر وفارس . وفـي المحاولـة كما يصفها د / مدكور جدة وطرافة وجمع وتنسيق ، وبحـث وتحقيق . قام به نفر من المتخصصين .وأبرزوا في هذا العمل العظـيم ربط الثقافات بعضها ببعض وتم كشف التبادل بين الحضارات المخـتلفة ، وحـذت جامعـة " هارفارد " حذو اكسفورد وأوكلت إلى " جـورج سـارتون " تاريخ العلم منذ نشأته إلى اليوم . واضطلع " ثور ندايـك " في جامعة كلومبيا بتاريخ السحر والعلوم التجريبية. "وجورج سـارتون" Geeorge Sarton (١٩٥٦) المشـار إليه آنفا يسفه في كتـبه وأبحاثـه الرأي الذي يجعل العلم (أي علم) خلق مفكر واحد لم يسـهم فـي إنشـائه أحد قبله أو يجعل الحضارة ـــ أية حضارة ـــ من صنع شعب واحد لم يسبقه إليها شعب أخر .

وإذا كـان مؤرخـو العلم من الغربيين يجعلون العلوم الطبيعية والرياضـية اخـتراعا يونانـيا لـم يسهم فيه أحد قبلهم ، فإن " جورج سـارتون " يقـول في تفنيد هذا الرأي :" إن من الضلال أن يقال إن " إقلـيدس " هـو أبو علم الهندسة ، وان " أبقراط" هو أبو علم الطب أو ...... فـإن تـاريخ العلـم لا يعرف من الآباء الذين لم يولدوا إلا أبانا الـذي في السموات " ويندد بما ذهب إليه بعض المؤرخين الذين يرون أن الـتراث العقلي اليوناني خلق عبقري أصيل ، جاء على مثال سابق ويسـمونه " المعجـزة اليونانية : يسفه هذا الرأي ويعتبر أن " المعجزة اليونانـية " المزعومة لها أب وأم (شرعيان) أما أبوها فهو تراث مصر

القديمـــة ، وأمــا أمها فهي ذخيرة بلاد النهرين ، ويواصل " سارتون " أبحاثـــه ويعقـــد مقارنة بين ما سموه بالمعجزة اليونانية ، وما يسميه هو بالمعجـــزة العربـــية فـــي عصر الإسلام الذهبي ــ وذلك لأن ما حققه العـــرب في المجال العلمي فيما يقول ط سارتون " ــ يكاد يتجاوز حد التصديق .

ونذكـــر من الباحثين المنصفين في هذا المجال في ظل الدعوى الجديـــدة التـــي وضحت معالمها في هذا العصر وأيدتها هيئة اليونسكو بجهودهـــا ومؤتمراتها حيث اختتم البروفسور " كويلريون T.Cuyler Young بحـــثا له عـــن " أثر الثقافة الإسلامية في الغرب المسيحي " بتذكـــير مســـيحي أوربا المعاصرة بالدين الثقافي العظيم الذي يدينون به للإســـلام مـــنذ أن كـــان أجدادهـــم في العصور يسافرون إلى حواضر الإســـلام فـــي أســـبانيا الغربية خاصة ــ ليتلقوا على أيدي معلميها من المسلمين " الفنون والعلوم وفلسفة الحياة "

ونذكـــر مـــن العلمـــاء المنصفين أيضا مؤرخ الحضارات " ول ديورانـــت " W.Dwrant المولـــود عـــام ١٨٨٥ و " بول اورسيل " P.M. Oursel اســـتاذ الفلسفة الشرقية ، ومدير معهد الدراسات العليا فـــي باريس وغيرهم كثيرون . من منطلق هذه الحقيقة ــ حقيقة أنه لا يوجـــد من يعتبر نفسه أب لحضارة انفرد بها عن السابقين عليه ، نصل إلـــى أن العـــرب قـــد تســـلموا القبس من بناة الحضارات القديمة منذ منتصـــف القرن الثامن الميلادي ، وقد بقيت في يدهم بضعة قرون من

الــزمان يضــيئون بــنوره حــياتهم، وحياة من اتصل بهم أو عاش في ظلهم.

وفــي الوقــت الذي أوقد فيه العرب شعلة العلم الوضاءة كانت أوربــا مــنذ سقوط الدولة الرومانية الغربية في أيدي القبائل الجرمانية المتوحشــة أواخــر القرن الخامس للميلاد، في حالة مزرية من البداوة والجهالــة والتخلف ، وحين أخذت تستيقظ بعد هذا السبات العميق الذي دام بضــعة قــرون مــن الــزمان لــم تجد أمامها إلا حضارة العرب الإســلامي التي كانت سيدة هذا الأوان ونسوق قول لوبون " .. والعرب هــم الذيــن فــتحوا لأوربــا ما كانت تجهله من علم المعارف العلمية والأدبــية الفلسفية ، فكانوا ممدا لنا ستة قرون ...وإذا كان هناك من نقر بأننا مدينون له، فالعرب هم تلك الأمة ".

ومــن خــلال هذا الاستعراض السابق ليقظة علماء الغرب في إنصــاف التراث العربي الإسلامي ، وأن الحضارات الإنسانية لا تنفك عــن الأخــذ والعطــاء مــن بعضها البعض ، أختم هذه الوقفة بمقولة الأســتاذ الدكتور مدكور في هذا الصدد : فالثقافة الإنسانية ذات موارد مــتعددة بيــن شرقية وغربية ، وما أشبهها بنهر جار تصب فيه فروع مخــتلفة ، وهــو فــي مجراه يغذي آفاقا جديدة ، ويبعث طاقات شابة، وتحــرص الحضارات المختلفة على تعرف أمجاد الماضي والأخذ عنها ، بصــرف الــنظر عــن أصولها ومصادرها وقديما قالوا : " العلم لا وطن له " .

والحقيقة التي نلخص إليها هى أن الثقافة اليونانية أخذت عن الثقافات الشرقية بخاصة المصرية والهندية ، والثقافة العربية تمت بنسب إلى بعض الثقافات الغربية والشرقية وقد أثرت بدورها تأثيرا واضحا في الثقافة اللاتينية، ثم امتد أثارها إلى النهضة الأوربية . ومن خلال تعدد وتنوع الينابيع وبالتفاعل مع بعضها البعض ، ومن خلال الأخذ والعطاء يزداد مضمونها خصوبة وثراء ، وما حضارة اليوم في أعلى مستوياتها إلا حصيلة وحصاد جهود حضارات الأمس، ومؤتمركم هذا صورة مشرقة لبيان التقاء الحضارات وأخذها بيد بعضها البعض إلى طريق العلم والتقدير والتأكد على وحدة الأصل للإنسان وهذه الروح وبهذا المضمون يمكن للبشرية أن تخطوا أعظم الخطوات في سعادة الإنسان في كل مكان .

موضوعات الفلسفة الإسلامية :

لا يخلو الحديث عن دور الحضارة العربية في الأندلس، وتأثيرها على أوربا من الاستخفاف من قبل بعض الغربيين المتعصبين، والإصرار على أن الحضارة الأوربية لا تدين بالفعل لغير أجدادهم من اليونان والرومان، وإنكار وجود فلسفة عربية إسلامية واتهام المسلمين بأنهم لم يصنعوا شيئا أكثر من أنهم تلقوا دائرة المعارف اليونانية في صورتها التى كان العالم كله مسلما بها في القرنين السابع والثامن الميلادي ، والحقيقة الهامة التى فاتت هؤلاء المتقولين أن الفكر العربي الإسلامي لم يكن أبدا مجرد كوبري انتقل عبره التراث اليوناني إلى أوربا ، كما غاب عن هؤلاء أيضا أمر آخر

وهو أن الفلسفة الإسلامية واجهت مشاكل وقضايا شغلت الفلاسفة المسلمين ولم يعرفها اليونان ، ولذلك أردت أن أقف على هذه القضايا ، مع بيان أهم الخصائص والسمات التى تحلت بها الفلسفة الإسلامية.

واجه الفلاسفة المسلمون مشكلات جديدة لم تفرض نفسها على أسلافهم ، فنجد ابن سينا ، والفارابى والكندي وابن طفيل وابن رشد قد تميزوا بفكر وثقافة اتسمت بها عقولهم وتميز بها فكرهم في القضايا التى عالجوها بمنهج يبتعد تماما عن الفلسفة اليونانية . فقد عنت الفلسفة الإسلامية لدى هؤلاء الفلاسفة بمشكلة الواحد المتعدد ، ومشكلة الألوهية ، والبعث والوحي، وصلة المخلوق بالخالق ، وموضوع النبوة ، ومعضلة النفس وخلودها .

وقد حرص فلاسفة المسلمين على أن يثبتوا أن الوحي والعقل حق ، وأنهما يختلفان منهجا ويلتقيان في نهاية الأمر ، بالإضافة إلي رأيهم في الجانب الذى ظهر فيه التأثير شأن حقيقة البشر في التأثير والتأثر بعضهم ببعض ، لم يكن المسلمون مجرد نقلة ، بل كانوا في شروحهم للنصوص التي ينقلونها يضيفون إليها من نتائج خبراتهم ، وخلاصة تأملاتهم ويبدون من أصالة الفكر ما شهد به المنصفون من المستشرقين أفادوا مما أخذوا، وزادوا ، حتى في المنطق اليوناني ، مع أن المنطق بالذات كان له أثره فى العلوم والتعبيرات والتدليل ، وبدا هذا واضحا في أساليب المتكلمين وتعبيرات الفقهاء ، وفي موقف ابن خلدون في " مقدمته " شاهد صدق على ذلك . حقيقة نقل المسلمون عن اليونان ، ولكنهم أضافوا وزادوا وابتكروا ، لأنهم كانوا ينظرون

بعيـــن إلـــى الـــثقافة اليونانية وبالعين الأخرى إلى التعاليم الإسلامية . وظهـــرت ابـــتكاراتهم مـــن خـــلال توفيقهم بين الشريعة والحكمة لدى فلاســـفة المشرق والمغرب على السواء فنجد في المغرب ابن طفيل في قصـــته الرائعة " حي بن يقظان " وابن رشد في مؤلفاته " فصل المقال فـــيما بيـــن الحكمة والشريعة من الاتصال و" الكشف عن مناهج الأدلة فـــي عقـــائد الملـــة " و" تهافـــت التهافت " وقد تناول ابن رشد ببراعة التوفـــيق بيـــن الحكمـــة والشريعة، وبين أن الدين الإسلامي يدعو إلى تـــأمل الكـــون، والقـــرآن مليء بالآيات التى تدعو إلى التعقل والتفكير والحكمـــة يقول ابن رشد : " فأما أن الشرع دعا إلى اعتبار الموجودات بـــالعقل ، وتطلـــب معرفـــتها به فذلك بين في غير ما آية من كتاب الله تـــبارك وتعـــالى مثل قوله (فاعتبروا يا أولى الأبصار) وهذا نص على وجـــوب اســـتعمال القياس العقلي أو العقلي والشرعي معا . ومثل قوله تعـــالى (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شـــيء). إن الفلســـفة عـــند ابـــن رشـــد هى " النظر في الموجودات واعتـــبارها مـــن جهـــة دلالـــتها على الصانع ، أعني من جهة ما هى مصـــنوعات ، فـــإن الموجدات إنما تدل على الصانع لمعرفة صنعتها. أمـــا الديـــن فهـــو مجموعـــة مـــن الحقائق أوحى الله بها للأنبياء وهذه الحقائق تقدم للإنسانية ما يمكن أن يعرفه عن أمور الشريعة.

(مـــثل الثواب والعقاب في الحياة الآخرة) كما تقدم له المعرفة العملـــية أي معـــرفة مـــا ينبغـــي عملـــه لتحقيق السعادة . وما ينبغي الامتـــناع عنه لتجنب عقاب الآخرة. إذ تتفق الفلسفة والدين في نظر ابن

رشد من حيث الموضوع فكلاهما يبحث في الله والكون والحياة، ولكنهما يختلفان من حيث منهج المعرفة .

ويستكمل ابن رشد حديثه في قضية التوفيق بين النقل والعقل ببراعة ودقة ، وقد استفاد بهذه المسالة رجال الكنيسة في أوربا سواء في التفكير الفلسفي أو ما نشا عنها " مثل علم الكلام " إلى جانب الموضوعات الخاصة بالفلسفة الإسلامية ، فقد شاركت سابقتها من الفلسفات القديمة في معالجة الموضوعات التقليدية القديمة من البحث الانطولوجى في الوجود ، ولواحقه وايستمولوجى في نظرية المعرفة ، وأدوات العلم بالحقائق والاكسيولوجى في قيم الحق والخير والجمال والسعادة ونحوها من موضوعات تقليدية ، وسواء كانت الدراسات الفلسفية من نبع العقلية الإسلامية وعقيدتها ، أو الموضوعات التقليدية المعرفة لدى اليونان، فإن العقل الفلسفي الإسلامي قدم لأوربا إفرازا عظيما أنار لها طريق الفكر والثقافة عبر معابر مختلفة ستكون موضع حديثنا بعد قليل.

خصائص الفلسفة الإسلامية :

تميزت الفلسفة الإسلامية بمزايا وخصائص عن فلسفة اليونان وأول هذه المزايا كما أشرت آنفا أنها فلسفة دينية تقوم على أساس من الدين لأن رجالها تربوا ونشأوا في أحضان العقيدة الإسلامية ، وقد تربى الفلاسفة على الأبحاث الدينية والدراسات الكلامية التى انتشرت

فـــي ربوع المجتمع الإسلامي، وأصبح وسيلة وسلاحا خطيرا ، دافع به المتكلمون والفلاسفة عن الدين والرد على أصحاب الملل الأخرى.

وكثـــيرا ما حاول فلاسفة الإسلام بوجه عام أن يدعموا آراءهم بأســـانيد من الكتاب والسنة ، وابن رشد له في هذا المجال قدم راسخ . ونـــرى الفلســـفة الإسلامية ترعى بالدرجة الأولى العناية بدراسة الواحد ، وتحلـــل فكـــرة الألوهـــية تحلـــيلا شاملا دقيقا لم تسبق إليه ، ودارت الأبحـــاث الفلســـفية حـــول تصـــوير البارى جل شانه تصويرا أساسه الـــتجريد والتنزيه، والوحدة المطلقة والكمال التام ، وعن الواحد صدر كـــل شيء ، فهو المبدع والخالق الذى أبدع من لا شيء ، وخلق العالم مـــن الأزل ونظمه وسيره ، فالعالم معلول له في وجوده وبقائه ، أبدعه بمحـــض فضله ، ورعاه بعناية ، وأخضعه لقوانين ثابتة، ونظم محكمه ، وعلـــى هذا فالطبيعة ، والكسمولوجيا مرتبطتان في الفلسفة الإسلامية ارتباطا وثيقا بالميتافزيقا .

ونظـــرة فلاســـفة الإسلام إلى أن الروح مصدر الحياة والحركة والإدراك ، ووســـيلة الـــبهجة والســـعادة ، ففـــي الكائنات الحية نفوس تغذيهـــا وتحركها وتمد بالعلم والمعرفة . وللفضائل قيم ذاتية ، والحلال بيـــن والحـــرام بيـــن ، وفي وسع العقل البشرى أن يكشف عن ذلك ، ولكن الوحي يدعم العقل ويؤيده .

وهـــذا الطـــابع الدينـــي والروحـــي استطاعت الفلسفات الحديثة والمعاصـــرة، ومـــا كـــان لرجال الدين في القرون الوسطى أن ينكروا فلســـفة تقـــول بـــالخلق والإبداع ، وتبرهن على خلود الروح ، وتؤمن

بالجـــزاء والمسئولية ، والبعث والسعادة الأخروية ولقد وصل الأمر " بروجربـــيكون (١٢٩٤) أنـــه كـــان معجـــبا بنظرية " الخلافة والإمامة الإســـلامية علـــى نحو ما شرحها ابن سينا في كتاب الشفاء إلى حد أنه شاء أن يطلق على البابا لقب "خليفة الله في أرضه".

ومن خصائص الفلسفة الإسلامية أنها عقلية :

ورغـــم الجانـــب الروحـــي والدينـــي الـــذي تتمـــيز به الفلسفة الإســـلامية، إلا أنهـــا تـــتحلى بالجانب العقلي ، وتعول عليه كثيراً في مشـــكلة الألوهية، والكون والإنسان، فواجب الوجود عقل محض، يعقل ذاتـــه بذاته ، فهو عاقل ومعقول في آن واحد، ومنه صدر العقل الأول، فهـــو أول شيء خلقه الله، وفي سلسلة متلاحقة صدرت العقول الأخرى الـــتى تدير شئون السماء، فيما عدا العقل العاشر، أو العقل الفعال، الذي يرعى شئون الأرض.

الـــنفس البشـــرية قـــوة من قوى النفس ، وتسمى النفس الناطقة وهـــي ضربان: عملي يسوس البدن ، وينظم السلوك ، ونظري يختص بـــالإدراك والمعرفة ــ فهو الذى يتقبل المدركات الحسية ، ويستخلص مـــنها المعانـــي الكلية بعون من العقل الفعال . وقد انتقل هذا التيار إلى الفلســـفة المســـيحية وكـــان فلاسفة الإسلام بوجه خاص حمله رايته ، وأثـــاروا فـــي القـــرن الثالـــث عشر حركة فكرية قوية ، فأيدهم بعض المدرســـيين . وعارضهم آخرون ونمت الدراسات العقلية نموا كبيرا ، وكانـــت الدراسات النقلية في القرون الوسطى أقوى وأغلب ، ومن آثار ابـــن رشـــد الهامة في الفكر الأوربي ، حينما حمل دراسة التوفيق بين

العقـــل والنقل من خلال منهجه الفلسفي العقلي، أدى إلى شبه انقلاب في الحـــياة الأوربية زعزعت سلطان الكنيسة ، إنها نجحت في التوفيق بين الفلاســـفة بعضـــهم البعض فقد عرف العرب شيئا من الفلسفات الشرقية القديمـــة ، كمـــا عـــرفوا شـــيئا من السابقين لسقراط ، والسفسطائيين والســـقراطيين ، وأنصـــاف الســـقراطيين والرواقيـــن والأبيقوريين ، وجماعـــة الشـــكاك ، ورجـــال مدرســـة الإســـكندرية ، وعنوا خاصة بـــأفلاطون وأرســـطو ، وقام فلاسفة الإسلام في التوفيق بين أفلاطون وأرســـطو، وكـــان يعد هذا التوفيق من الأسس الهامة التى قامت عليها الفلســـفة الإســـلامية مـــن الكـــندي إلى ابن رشد في التوفيق بين العقل والـــنقل . ويؤكـــد د . مدكور على مسألة هامة نتجت من التوفيق الذى حاولـــه الفلاسفة المسلمون ويعد وشيجة من وشائج القربى بين العربية اللاتينـــية ، فعـــنه أخذ العرب عن أفلاطون ما قربهم من الأغسطينين ، ورجـــال المدرسة الفرنسيكانية بوجه خاص ، وقد رأى هؤلاء في بعض الـــنظريات الإســـلامية ما يتلاقى مع آراء ألفوها من قبل ، فاستساغوها واطمـــأنوا إلـــيها ، وفـــي تعلـــيق فلاسفة الإسلام بأرسطو ما وجه إليه أنظـــار المســـيحيين ، وحملهـــم علـــى ترجمة كتبه ، ودفع كثيرين من رجـــال القرن الثالث عشر إلى دراسه والتعليق عليه ، وبخاصة القديس " تومـــا الإكويـــنى (١٢٧٤ م) الـــذى يعتـــبر مـــن هذه الناحية بين اللاتينيين بمثابة ابن رشد بين العرب .

أمـــا الســـمة الـــرابعة للفلسفة الإسلامية أنها وثيقة الصلة بالعلم ففلاســـفة الإســـلام جميعا كانوا يعتبرون العلوم العقلية جزءاً من الفلسفة

، وقد عالجوا مسائل في الطبيعة ، كما عالجوا مسائل في الميتافزيقا ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك كتاب " الشفاء ". والكندي عالم قبل أن يكون فيلسوفا ، عنى بالدراسات الرياضية والطبية ، وكذلك الفارابي الذى كان له بحوث في الهندسة ، وعلم الحيل (الميكانيكي) وهو موسيقي كبير ، ولم يخرج الأمر عن ذلك في بلاد الأندلس ، فقد كان ابن باجة ، وابن طفيل ، وابن رشد أطباء وإن تفاوتت رتبتهم ، وكتاب الكليات في الطب لابن رشد الذى ترجم إلى اللاتينية في منتصف القرن الثالث عشر مثالا جيدا لعرض القضايا الكلية والمبادئ العامة .

هكذا وصلت الفلسفة الإسلامية أو نقول المولود الجديد إلى أوربا بخصائصه الجديدة من ثراء في الفكر ، والتزام بالعقيدة ، التى أتاحت الحرية الكاملة للبحث والتقصى في جميع ميادين الفكر في مناخ يتحلى بتقديس العلم والعلماء ، أقول في هذا المناخ الرائع وصلت حضارة الأندلس لأوربا وزعزعت هيمنة وسيطرة الكنيسة على الإنسان الأوربي ، فكانت كالزلزال الذي هز كل البلاد الأوربية في جميع أنواع العلم والمعرفة .

ميادين الاتصال بأوربا :

قبل أن نمضى في إبراز دور الترجمة في النهضة الأوربية ، نقف قليلا أمام ميادين ومسالك الاتصال بين العالم العربي الإسلامي الذي كان في ذاك الوقت قمة ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية .

١- أول هــذه الميادين وأخطرها هو الأندلس التي فتحها العرب سنة ٩٢ هـــ (٧١١م) فكانــت بذلك أول قطر يقتطعه العرب من أوربــا المسيحية ويضمونه إلى دولة الإسلام ، ومنذ هذا التاريخ حــتى ســنة ٨٩٧ هـ (١٤٩٢م) نجد للمسلمين دولة تفاوتت قــوة وضــعفا واتســاعا وضــيقا ، ولكنها مثلت على كل حال وجــودا عربــيا في هذه القطعة من أوربا وجودا لم ينته بسقوط مملكــة غــرناطة فــي شــبه الجزيرة في سنة (١٤٩٢م) بل اســتمر بعــد ذلك ممثلا في الموريسكين - أي المسلمين الذين أرغمــوا علــى التنصــر وهم الذين بقوا في أسبانيا حتى القرن الســابع عشــر الميلادي حينما تقرر طرد جماعات كبيرة منهم إلــى الشمال الأفريقي ، وبدراسة هذه الفترة نجد أنها بلغت من حيــث العــدد والأرقام طيلة تسع قرون تقريبا وهى مدة حيوية ونشــيطة في جميع ألوان المعرفة ، من ناحية أخرى كانت مدة كافــية لكــى يترك العرب في الشعبين الأسباني والبرتغالي من رواســب حضــارتهم ، مــا لا يزال سمة وبصمة واضحة لهم حــتى اليوم . بل إن أسبانيا بالذات كانت معبرا انتقلت من خلاله الحضــارة العربــية إلى أوربا وأمريكا . بل من المدهش أن في الوقــت الذى تحاول أسبانيا القضاء على بقية الشعب الإسلامي فــي داخــل حدودهــا ، نجد هذا الشعب يقوم بدور كبير خارج حدودهــا منذ أوائل القرن السادس عشر، فقد استطاعت أن تمد رقعــة نفوذهــا فــي اتجاهين: إلى القارة الأوربية حينما أقامت

إمــبراطورية ضخمة سيطرت على الشطر الأكبر من أوربا في ظــل الأســرة النمســاوية ، ثــم نحو أمريكا هذه القارة الحديثة الاكتشــاف سنة ١٢٩٢ م ومن الصدف أن هذا الاكتشاف يلتقي فــي فــترة سقوط غرناطة في أيدي الملكيين الكاثوليكيين ، ولم تمــض سنوات على هذا الكشف حتى كانت أسبانيا والبرتغال ــ وهمــا مازالــتا بعــد متشبعتين بالحضارة العربية الإسلامية ــ تقتســمان ملــك الشــطر الأعظــم مــن القــارة الأمريكية من كاليفورنــيا في الشمال إلى أرض النار في أقصى جنوب القارة ، وكــان مــن الطبيعــي كذلك أن يحمل الفاتحون الأسباب إلى العــالم الجديد كثيرا مما استقر في دمائهم ونفوسهم من عناصر عربــية فــي جمــيع ألــوان المعيشة التي عاشوا خلال القرون العديدة في أسبانيا العربية .

٢- المــيدان الثاني : لالتقاء الشرق العربي وأوربا كان في جزيرة صــقلية الشــطر الجنوبي من إيطاليا ، فقد حدث في هذا الجزء مــن أوربــا شيء شبيه بما حدث في جزيرة ايبريا ، وإن كان علــى نطــاق محــدود ســواء في الزمان أو المكان. فقد بقيت صــقلية في أيدي المسلمين حتى استولى عليها النورمنديون في ســنة ٤٨٤ هــ (١٠٩١م) . وقد تكررت في صقلية ظاهرة التأثــير المتــبادل بيــن الحضارة العربية الإسلامية والأوربية المسيحية على ما حدث في أسبانيا .

٣- أما الميدان الثالث : الحروب الصليبية التى استمرت من سنة (١٠٩٧م) إلى سقوط آخر معاقل الصليبين في أيدي المماليك في سنة ١٢٩١م، ولم تمنع الحروب التى ظلت سجالا بين المسلمين والصليبين على طوال هذين القرنين من الاحتكار المستمر بين الفريقين ، وقد أدهشت المفاجأة لأولئك الصليبين الأوربيين أن رأوا أن العالم الإسلامي لم يكن كما يتصورون ، بل رأوا أنه على درجة كبيرة من الرقى والتقدم في مختلف ميادين الحضارة ، وهكذا بدعوا يستفيدون من عالم الإسلام ويأخذون كثيرا من عناصر حضارته .

بعد هذا الحديث على مسالك الالتقاء بين حضارة العرب والعلم الغربي ، نتناول الدور الخطير والهام في النهضة الأوربية -وهو دور الترجمة .

دور الترجمة في النهضة الأوربية :

إن نهضة أمة من الأمم يلزمها معرفة حضارة الأمم الأخرى، ويلزم لهذه المعرفة الترجمة لها إلي لغة هذه الأمة، وهكذا فعل العرب والمسلمون إبان يقظتهم في عصر الإسلام الذهبي أيام بنى العباس، وهكذا فعلت أوربا في عصر النهضة التي بدأت بالعصر المدرسي، وبلغت ذورتها إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر الميلادي. ذلك أن أوربا قد غطت في نوم عميق منذ سقوط الدولة الرومانية الغربية أواخر القرن الخامس حتى القرن الحادي عشر، وحينما أرادت أن تعود إلي ماضيها أدركت أنها لا تجيد لغة هؤلاء الأجداد من

اليونان عندئذ عهدت إلى تراث العرب المسلمين الذين كانوا قد نقلوا إلى لغتهم تراث اليونان ، ووجدت في نقله إلى اللغة اللاتينية التي كانت لغة العلم في أوربا إبان ذلك العصر ،حتى تيسر لها تعرف لغة أجدادها ، وتنقل عنها رأسا من غير وسيط . فاتجهت أوربا إلى التلمذة على يد علماء الأندلس ، وبدأت ذلك في حركتين من أوسع حركات الترجمة في تاريخ النهضات ، وبهما استهدفت أوربا نقل التراث العربي الإسلامي إلى لغتها العلمية (اللاتينية) ، وقد بدأت الحركة الأولى في الزمان ، وكان رائد الحركة قسطنطين الأفريقي ١٠٨٧م . أما الحركة الثانية فكانت في أسبانيا ، وكانت أوسع نطاقا ، وأكثر شمولا ، بدأت في النصف الأول من القرن الثاني عشر وامتد بضعة قرون من الزمان وكان رائدها المونستير ريموند رئيس أساقفة طليطلة، فكان له الفضل في نقل التراث العربي الإسلامي إلى أوربا المسيحية يرجع إلى رجل من كبار قساوسة الكنيسة في وقت أشعلت فيه الكنيسة نيران الحروب الصليبية وقد جمع في طليطلة الكثير من المصادر العربية بفضل اليهود وصلتهم بالطرفين ، لا سيما بيع وتجارة المخطوطات ، خاصة أنها كانت تجارة رابحة في هذه الفترة ، وأعان على هذا ألفونس الحكيم ملك قشتالة (١٢٨٤م) الذي كان نصيرا للعلم والفلسفة ، وكان يريد بالقشتالية أن تصبح لغة عالمية .

وقد مر بطليطلة أغلب المشتغلين بالترجمة ، منهم من استقر فيها وأقام بها مثل إبراهيم بن داود الإسرائيلي (١١٨٠م) والراهب هرمان الألماني (١٢٧٢م) رجيرار الكريموني (١١٨٧م)

والمطـــران دومنـــيك جـــند سالينوس (١١٥٠م) الذي عني بالجانب الفلســـفي ، وإلـــيه يرجع الفضل في إدخال عدد من فلاسفة الإسلام في العـــالم اللاتيني ، ولم يقف عند الترجمة ، بل ألف وكتب ، وكتبه أشبه مـــا تكـــون بملخصات لبعض الكتب العربية . أما بلرم عاصمة صقلية فقـــد نشـــطت فـــيها حركة الترجمة في القرن الثالث عشر تحت رعاية الإمـــبراطور " فـــردريك " الثانـــي الذي شاء أن ينشر الحكمة اليونانية والعلـــوم الإســـلامية ، وكان على صلة بحكام الشرق وولاته، واستطاع أن يجمـــع ثروة طائلة من المؤلفات العربية، ولعله قد حصل على كتب ابن رشد جميعها.

ولا يفوتـــنا أن نذكر من فريق المترجمين الذين كان لهم السبق فـــي هـــذا الميدان " ميشل اسكوت " (١٢٣٥م) ، تلك الشخصية شبه الأســـطورة التـــي كانـــت مملوءة نشاطا وحركة في مجال الترجمة فكان يـــوزع العمـــل علـــى عـــدد من التلاميذ والأعوان ، ثم يتابع نشاطهم ويـــراجع أعمـــالهم ، وبهـــذا اســـتطاعت " بلـــرم " أن تترجم (أحسن المؤلفيـــن وعلـــى رأســـهم ابن رشد ، وقد حرص الإمبراطور على أن يـــوزع تـــرجماته على الجامعات الأوربية ، رغبة في نشر العلم وبدافع من منافسة البابا غالبا .

وقـــد أشاد الباحث الأوربي ، " جوان أندي " بفضل العرب على الحضـــارة الأوربـــية إذ نشر في أوربا بالإيطالية في . بارما ١٧٨٢ – ١٧٩٩م كـــتابا فـــي ســـبعة مجلدات تحت عنوان : أصول كل الآداب وتطورهـــا وأحوالها الراهنة، ثم أعاد نشرها في روما منقحة في الفترة

مـــا بيـــن (١٨٠٨م)، (١٨١٧م) في ثمانية مجلدات وفيه أكد أن النهضـــة التـــي قامت في أوربا في كل ميادين العلوم والفنون والآداب والصناعات مردها إلى ماورثته عن حضارة العرب.

وكـــان الـــبابا سلفســـتر الثاني (١٠٠٣م) قد جاء برحلة إلى الأندلـــس فـــتأثر بـــالعلم العربـــي تأثـــيرا بـــالغ العمق ، ولا سيما في الرياضـــيات ولعلـــه أول مســـيحي قام بتعريف أوربا بالأرقام العربية الأســـبانية التـــي كـــان ينقصها الصفر وقتذاك . وقد ازدهرت في هذه الفـــترة الحـــياة العقلـــية فـــي الأندلس ، وكان يمثل التفكير الفلسفي في القـــرن الحـــادي عشـــر كل من ابن جيبرول اليهودي (١٠٥٨م) وابن باجه ، وابن طفيل وابن رشيد .

ونتـــناول بإيجـــاز شـــديد ما تم ترجمته من قبل أوربا في مجال الفلســـفة بـــالذات ، والـــذي أثمر في تكوين العقلية الأوربية ، وكان له دوره فـــي النهضـــة الأوربـــية – خاصة أن الفلسفة كما أشرنا من قبل ملازمـــة للعلـــم ، وأن فلاسفة الإسلام ، كانوا علماء وأطباء وفلاسفة. فقـــد عرف اللاتين الكندي أولا كعالم، ثم كفيلسوف ، وقد ترجم له أربع رسائل صغيرة هي :-

١- في العقل. ٢- في ما هية النوم والرؤيا.
٣- في الجواهر الخمسة. ٤- في البرهان المنطقي.

وعرفـــت أوربا عن طريق الأندلس من علماء المشرق الفارابي وكانـــت معرفـــته أوضـــح لدي اللاتين عن الكندي ، وإن لم يترجم من كتـــبه الفلســـفية حسب علمنا إلا " إحصاء العلوم " و " مقالة في العقل "

وقد ناقش هذا الكتاب مشكلة المعرفة ، التي تعتبر إحدى مشاكل الفلسفة المسيحية الكبرى التي أسهم فيها الفارابي وابن سينا بنصيب كبير .

والكتاب الثالث " التنبيه الى السعادة " ومن المعروف أن كبار مفكرى القرن الثالث عشر من المسيحيين عرفوا الفارابي ، وكثيرا ما أشار إليه ألبير الكبير وروجر بيكون " وكأنهم أدركوا تلاقي آرائه مع آراء تلميذه ابن سينا ، وطغي التلميذ على الأستاذ هنا كما طغي عليه عند العرب .

وقد عني اللاتين عناية فائقة بابن سينا خاصة موسوعته الفلسفة " الشفاء " وقد ترجمت هذه الموسوعة على مرحلتين ، مرحلة مبكرة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، ومرحلة لاحقة بعدها بنحو مائة سنة .

وقد تم ترجمة كتاب الغزالي " مقاصد الفلاسفة " على أيدي جند . سالينوس ، وكان لهذا الكتاب الفضل في فهم الفلسفة الإسلامية عند الأوربيين.

كما نجد آثار كتاب الغزالي " تهافت الفلاسفة " والذي ترجم متأخرا في أخريات القرن الخامس عشر – واضحة عند القديس توما الإكويني خاصة في كتاب " الخلاصة في الرد على الأمم " . وعرفت أوربا ابن ماجة أول فلاسفة الأندلس الكبار ، وإن لم يقفوا عنده طويلا إلا عند رسالته في القرون الوسطي عامة ولم تصلهم رسالته " تدبير المتوحد " ولم تترجم إلى العربية إلا في القرن الرابع عشر .

وابن طفيل : فقد ترجمت له قصته الفلسفية الرائعة " حي بن يقظان " في القرن السابع عشر (١٦٧١م) أما ابن رشد الذي كان أكبر فلاسفة الإسلام حظا من الترجمة اللاتينية فقد ترجمت شروحه على أرسطو بصورها المختلفة ، من صغيرة إلى كبيرة وتلخيصات ، ويبلغ عدد الأصول العربية ، والثانية في القرن السادس عشر ، وقامت كلها على العبرية حيث تمسك اليهود بفلسفة ابن رشد ورعايتهم لها ، فجمعوا كل مصادرها وترجموها إلى العبرية ، وكانوا واسطة بينهما وبين الفلسفة المسيحية ، فقد أسهموا في الحركة الفلسفية في القرون الوسطي ، وإبان عصر النهضة ويمكن أن يقال أن فلسفتهم كانت رشدية خالصة . وقد أعانت هذه الترجمات على نشر المذهب الرشدي في الغرب .

ولعل من الإنصاف ألا نغفل دور مفكري اليهود الذين ربطوا الشرق بالغرب ، فقد عاشوا في العالم الإسلامي ، وتأثروا به ، ثم ترجمت مؤلفاتهم إلى اللاتينية ، فكانوا همزة وصل بين الثقافتين الإسلامية والمسيحية ، وفي مقدمتهم ابن جيبيرول صاحب " نبع الحياة " وموسى بن ميمون صاحب " دلالة الحائرين " وقد اعتبروا الأول عند المسيحيين مسلما حينا ومسيحيا حينا آخر ، ونفذت آراؤه إلى رجال القرن الثالث عشر ، وهي مستمدة من الفكر الإسلامي ، كم من آراء ونظريات إسلامية انتقلت إلى الغرب عن طريق مفكري اليهود .

وقد أصبح من الثابت أن " روجر " الذي يعتبر الجد الأعلى للمنهج التجريبي الذي قال به " فرنسيس بيكون " وهو بدوره تلميذ

مخلـــص لابـــن سينا، ونذكر بدور جامعة بادور التي تعتبر آخر معقل لابـــن رشد والرشدية قد قامت بدراسات فلسفية وطبية لابن رشد مهدت للحركة العلمية الحديثة .

وقـــد أثارت الفلسفة الإسلامية في العالم اللاتيني شتي ، وحكمت العقـــل فـــي أمـــور كثيرة ، ووضعت طائفة من القضايا الدينية موضع البحـــث والتحليل. فعرضت لخلق العالم وقدمه ، وحقيقة النفس وخلودها ، وحاولـــت أن تفســـر الوحـــي والإلهام تفسيرا علميا ، وكانت آراؤها موضـــع أخـــذ ورد ، وتأييد ومعارضة ، وشاعت الكنيسة أن تتدخل في هـــذا البحـــث الطلـــيق فتضيف من حدوده ، وتفرض على أبنائها آراء معيـــنة، وتـــتدخل بالتحلـــيل والتحريم ، وتتحكم في البحث والدرس ، وهـــناك مـــن اســـتجاب ، وآخرون لم ينزلوا عند أمرها ، ووجدوا في بـــلاط " فردريك الثاني " ملجأ ونصيرا على البحث والاستمتاع بالحرية فـــي الـــرأي ، وقد حاول بعض رجال الدين أمثال " ألبير الكبير " و " تومـــا الإكوينـــي " و " دنس إسكوت " أن يوفقوا بين العقل والنقل كما صـــنع فلاســـفة الإسلام وعلي رأسهم ابن رشد فنجد تلميذه المخلص " ســـيجر ألبرينتي (١٢٨١) كان مثالا حيا في التحرر من سلطة الكنيسة ، حيـــث أطلـــق العنان للتحرر العقلي ، وللأسف كان ثمن ذلك أنه دفع حياته فقد قتل على أيدي شماسه.

ورغـــم حادثـــة " ســـيجر " الوحيدة من نوعها فقد تعذب الكثير وقـــتل مـــن جراء الاشتعال بالفلسفة والعلم في أوربا مما حفلت به كتب الـــتاريخ ونذكـــر " هرمان فان رزويك " الكاهن الهولندي الذي أحرق

بتهمة الهرطقة في لاهاي سنة (١٥١٢م) وقد كان هذا الكاهن من تلاميذ ابن رشد .

ورغم الهجوم على ابن رشد من قبل بعض الأوربيين ، إلا إنهم نهلوا من تراثه ، فنجد المستشرق " أزين بالاسيوي " أفرد كتابا خاصا بين العناصر الإسلامية التي أخذها " توماس الاكويني " عن فيلسوف قرطبة ، وإن كتب ابن رشد خاصة " تهافت التهافت " وكتاب " منهج الأدلة " كانت معروفة حق المعرفة لدي رجال الدين من طائفة " الدومنيكان " – تلك الجماعة التي أرسلها رئيس كنيسة طليطلة إلى بلاد المغرب لدراسة اللغة العربية وكتب الفلسفة والدين.

ويبين " أسين بلاسيوس " بأدلة حاسمة ، ونصوص عديدة أن كثير من نظريات " ريموند مارتان " وقد مهدت لحركة البحث والدراسة التي تميزت بها حركة النهضة الأوربية .

ويشيد بهذا الدور " لويجي رينالدي " في بحثه "المدينة العربية" قال "ومن فضل العرب علينا أنهم هم الذين عرفونا بدور ابن رشد ، ويعتبره هو المبتدع مذهب " الفكر الحر " وهو صاحب الكلمة المأثورة عند موته " تموت روحي بموت الفلسفة " .

ويضيف العالم الإنجليزي " جون ربرتون " في كتابه " تاريخ وجيز للفكر الحر إلى ما سبق ذكره في حق ابن رشد .

" إن ابن رشد مفكر مسلم لأنه كان أعظم المفكرين المسلمين أثرا وأبعدهم نفوذا في الفكر الأوربي "

ولابـــن رشـــد فضل لا ينكر على " روجر بيكون " الذي استفاد مـــنه الكثـــير وذكـــره في كتابه اللاتيني " ابوس ماجوس " واثني عليه وعلـــى مواهـــبه وســـعة علمه وقال " إنه فيلسوف متين متعمق صحح كثـــيرا من أغلاط الفكر الإنساني، وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة لا يســـتغني عـــنها بســـواها وأدرك كثيرا مما لم يكن قبله معلوما لأحد ، وأزال الغموض عن كثير من الكتب التى تناولها ببحثه " .

ونســـتطيع أن تقول أن ارتباط الفلسفة الإسلامية بالبحث العلمي ، ســـاهم في وضع أسس المنهج التجريبي ، وأثرى الحركة العلمية في جامعـــة أكســـفورد كمـــا حاول بعض رجال الدين مثل " ألبير الكبير " و"تومـــا الإكوينى" و"دانز سكوت". أن يوفقوا بين الشريعة والحكمة كما صنع فلاسفة الإسلام وعلى رأسهم ابن رشد .

الخـــاتمة

وهكـذا وصـلنا إلى نهاية هذه الجولة التي أكدنا فيها على عدة قضـايا فـي علاقـة الأندلـس ودورها في النهضة الأوربية في مجال الفلسـفة والتـي انتهينا فيها إلى حقائق تمت عن طريق منهج المقارنة والتحلـيل وأثبتنا أن العلم لا وطن له ، وسقوط نزعات التعصب المقيت مـن قـبل بعـض علماء الغرب ضد الفكر الإسلامي وتراثه سواء عن قصـد وسوء نية أم جهل بتراث الإسلام ودوره في مسيرة التحضر في أوربـا ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى انتحال كثير من المترجمين للـتراث الإسـلامي لأنفسـهم أو إخفائه تماما في غمرة التعصب الذي استبد بالفرنجة في أوربا الغربية .

- إن الأسـرة البشرية منذ العهد الأول أخذت وأعطت من بعضها الـبعض ، وأن من يتصور بأنه من أصحاب الحضارة المنفردة أو المـنقطعة من جذور سابقة ، فهو إنسان واهم ، ولا أساس له من علم أو حقيقة واقعية.
- بيـنا مدى قيمة وفاعلية دور الترجمة في إثراء حضارة الشعوب بعضـها البعض ، وأن الترجمة وسيلة عظيمة وفعالة إلى التقاء الحضـارات الإنسـانية لتزويد أصحاب النفوس المتعطشة للعلم والمعـرفة ، وقـد كان لحركة الترجمة في بلاد الأندلس عظيم الأثـر والفاعلية في تحرير العقل الأوربي من الجهل والاستبداد ، وتـزويدهم بأهم أسس وقواعد النهضة – وقد استمرت حركة الإحياء عن طريق الترجمة خمسة قرون من الزمان .

- وأيضا عن طريق الترجمة – حفظت الأصول اليونانية عند العرب ووجهت الأنظار الأوربية لها ، وكان نتيجة ذلك أن تكون جيل يلم باللغات الأجنبية ، وأنشئت معاهد لتعليم العربية واليونانية ، فأسست في طليطة مدرسة لتعليم العربية والعبرية ، وفيها تخرج " ريمون مارثان " الدومنيكان الذي كان على اتصال بالقديس توما الإكويني وبعد ذلك بقليل استطاع ريمون لول " (١٣١٦) أن يقرر مبدأ تخصيص كرسي للغات الأجنبية في الجامعات الأوربية.
- أوضحنا دور الفلسفة الإسلامية في تحريك العقلية الأوربية ، وتحريرها من استبداد الكنيسة. حتي وإن كان الثمن باهظا وفي سبيله دفعت الأرواح .
- أصبح من الواضح عند الإنسان المعاصر في مؤتمراته ، وأبحاثه ومؤسساته العلمية حقيقة هامة وهي أن الثقافات الكبرى تتفاعل بعضها مع البعض ، ومن خلال الأخذ والعطاء يزداد المضمون خصوبة وثراء .
- وأن النهضة الأوربية لم تخرج عن قانون النهضات الإنسانية الأخرى ، فقد استفادت بنحضارة العربية الإسلامية في جميع وجوهها ، وعلى رأسها العلوم العلمية والفلسفية .
- كفل حكام العرب التسامح الديني ، وبسطوا رعايتهم على أهل العلم من جميع الملل ، وقد حذا ملوك الأسبان حين استردوا الأندلس حذو العرب في كفالة التسامح مع من ليسوا من أهل

ملـــتهم ، فقد كانوا يقاتلون العرب ، وهم يجلون علماء ويكنون الإعجـــاب بحضــــارتهم ، وكان هذا التأثير أمرا عظيما يستحق التسجيل .

أخيرا: عندي تسجيل لموقف ، ثم رجاء ...

- أمـــا تســـجيل الموقـــف فهو يدور حول انبهار فريق من علماء العــــرب بحضارة الغرب انبهارا ينسيهم أي معني أو قيمة لتراث الإســـلام ، ولبصـــمات رجاله في الحضارة الغربية. أما الفريق الثانـــي وهـــو عكـــس ذلك فهو يعادي الغرب وكل ما يأتي من عـــنده خيرا كان أو شرا ، فهو كله شرور ، وفي بعض الأحيان يصـــل إلـــى مرتـــبه التحريم، ولهذا الفريق وذلك نقول :- إن الحضـــارة الغربـــية أصـــبحت لهـــا مكانتها العلمية العظيمة ، ودورهـــا فـــي تطور الحياة التكنولوجية بصورة رائعة ، ولكن لـــيس معني ذلك أن الإنسان العربي ينسحق تحت هذه المشاعر، وأذكـــر بـــأن مقومـــات العالم الإسلامي نفسه كانت من القواعد الأساســـية لبـــناء هذه النهضة، وعلى الإنسان العربي أن يستعيد نفســـه، ومـــا لديـــه من المقومات المادية والمعنوية والفكرية ما تســـاعده علـــى استعادة مكانته السابقة ، واللحاق بما يليق به في هذه الفترة الحالية ، وما حضارة اليوم إلا حصاد زرع الأمس.
- أمـــا الـــرجاء؛ فهو ألا نقف طويلا عند الذكريات والحديث عن أطـــلال الأمس ، وأن نوظف الذكريات إلى عمل جاد بخطوات قوية وسريعة، لأن الوقوف عند حد الكلام، يؤدي إلى الخجل .

مصادر البحث

١- دكـــتور / إبراهيم مدكور: في الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق- الجزء الثاني .

٢- دكتور / أحمد أمين: ظهر الإسلام – الجزء الثالث .

٣- دكـــتور / توفـــيق الطويل: في تراثنا العربي الإسلامي " تراث الإسلام"، الجزء الأول والثاني " سلسلة عالم المعرفة ".

٤- دكتور / عبد الرحمن بدوي: فلسفة العصور الوسطي – دار القلم.

٥- دكـــتور / عـــبد الرحمن على الحجي: تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتي سقوط غرناطة دار القلم – دمشق .

٦- دكـــتور / محمـــود قاســـم: ابـــن رشد وفلسفته الدينية " سلسلة الدراسات الفلسفية .

٧- دكـــتور / محمد لطفي جمعة: تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب – المكتبة العامة.